دور العبيد في تأمين الغذاء ببلاد المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني

أ/ قبايلي كاهينة
المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة-

الملخص:

العبودية مؤسسة اجتماعية واقتصادية قائمة على أساس استغلال الأشخاص الضعفاء، وقد عرفتها مختلف المجتمعات القديمة واستمرت إلى يومنا متخذة أشكالا عديدة عبر العصور، كما تعددت الوظائف التي سخرت فيها هؤلاء باختلاف المجتمعات، ولعل أكبر المجتمعات شهرة بهذه الظاهرة روما التي كرست استغلال العبيد في شتى الميادين وفي مختلف أقطار الإمبراطورية بما فيها بلاد المغرب، وسخرتهم لخدمة مصالحها، لاسيما الميدان الزراعي لتوفير مختلف حاجياتها الغذائية.

المقال:

شغلت الزراعة مكانة مرموقة في اقتصاد روما باعتبارها مصدرا للغذاء والثروة، ولتحقيق الحياة الرغيدة لشعبها بسطت نفوذها في حوض البحر المتوسط وسيطرت على الأراضي الزراعية وربطت اقتصاد المناطق المحتلة باقتصادها، ولم يكن مصير بلاد المغرب أفضل من باقي المناطق المفتوحة، فبسقوط قرطاجة سنة 146 ق م أخذت تبسط سيطرتها على المنطقة تدريجيا إلى أن تم إلحاقها فعليا بعد قضائها على آخر الحكام المحليين بطليموس ابن يوبا الثاني الذي أعدم من قبل الإمبراطور كاليقولا (Caligula)،[1] وانتهى الأمر بإحكامها السيطرة على أقطارها وبتسخير مواردها الطبيعية الهائلة التي أساسها الأرض والماء لضمان تموينها المنظم والمستمر بالحبوب لفائدة شعبها، ولم يتوقف الأمر عند هذا بل حولت السكان الذين يعيشون فيها بمقتضى قانون الحرب الى عبيد،[2] لازدياد الحاجة الى العمل والى تنظيمه حيث أصبحوا أداة طيعة في يدها، ويرجع ذلك أساسا الى ذهنية

---

[1] محمد البشير شنيتي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا 146ق م-40م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 51.

[2] محمد البشير شنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص38.

الروماني الذي يرى أن العمل يرادف الذل والانحطاط الفكري والأخلاقي لكونه يبعد الإنسان عن الحياة الروحية، لذا لا يجوز للروماني مزاولتها، على هذا تحول العبد الى محور أساسي في عملية الإنتاج بالرغم من أنه لم ينل قسطا وافر من الدراسة والاهتمام.

ولمعالجة هذا الموضوع سنتناول في المحور الأول كيفية نقل الأراضي من أصحابها إلى الملاك الوافدين الجدد، وبعض الإجراءات الأساسية للرفع من الإنتاج، أما المحور الثاني سنتحدث فيه عن عملية تجنيد الأعداد الضخمة من العبيد في المزارع الشاسعة، ليكون المحور الثالث والأخير للحديث عن التحول الذي طرأ على اليد العاملة بعد ظهور نظام القنية ودوره في تراجع الاعتماد على العبيد مقارنة بالفترات السابقة.

1-الاستيلاء على الأراضي الزراعية وتحويلها الى أملاك رومانية:

كلما احتلت روما شبر من هذه المنطقة إلا وأعلنته أملاكا عامة للشعب الرومـــــــاني Ager Publicus ، فقد منحت بعض هذه الأراضي للمستوطنين الوافدين إلى إفريقيا والباقي استولت عليها طبقة ملاك الأراضي الأغنياء المنحدرين من الأسر الكبيرة في روما،[1] وعلى هذا أصبح الشعب الروماني المالك اسميا، بينما السيادة الفعلية كانت في أيدى هؤلاء لاستحالة استغلال هذه الممتلكات الضخمة بطريقة مباشرة من طرف الشعب،[2] للعلم أن هذه الممتلكات الموزعة عليهم في الأصل أملاك عامة أو تابعـــة للأرستقراطـــيين القرطاجيين، النوميديين والمور ســـــابقا مع الإبقاء على بعض الملكيات للأهالي لاستغلالها، وترك الحرية لهم في تسييرها[3] دون أي ضمان، حيث كان بإمكان الدولة نزعها عند الحاجة.

وجاءت أول خطوة لنقل الارض بقرار من غايوس غراكوس(G. Gracchus) سنة 122ق م، الذي أقدم على إعادة توزيع الأراضي وتقسيمها إلى قطع تقدر بـــ

[1] E. Albertini, L'Afrique Romaine, Presses de l'imprimerie officielle, Alger, SD, P56.
[2] G. ch. Picard, La civilisation de l'Afrique Romaine, Librairie Plon, Paris, 1959, P59.
[3] E. Albertini, Op. Cit., PP55-56.

100 الى 200 يوجيرا[1] وتقديمها على حوالي 6000 مستوطن، غير أن هذا المخطط باء بالفشل بعد أن خدع غراكوس من قبل هؤلاء المواطنين، لاهتمامهم بشؤونهم الخاصة على حساب المشروع، فهذا ما لم يرض به مجلس الشيوخ، [2]فانتهي به الأمر إلى عدم إعادة انتخابه ســــنة 121ق م ثم اغتياله في نفس السنة، وعقـــــــــب وفاته اتخذت إجراءات هامة منها إلغاء لجنة الإصلاح الزراعي والتوقف عن العمل بــــقوانينه تدريجيا إلى أن ثم إلغاءها نهائيا سنة 111ق م،[3] ثم إصدار قانون لتصفية الوضع الذي آلت إليه المنطقة واستثنيت فقط مناطق المدن الحرة وبعض الممتلكات التابعة للأجانب، فقسمت بذلك أراضي الشعب إلى قسمين؛ فالأول بقي تحت أيدي سكان الأقاليم لتفادي ردود الفعل العنيفة مقابل ضريبة العشر من منتوجاتهم، أما القسم الثاني قدم للمستوطـــنين، كما عمد بعض الرأسماليين الكــــبار إلى شـــراء أراضي ضخمة لاستثمار أموالهم في المنطقة وتوسيع نفوذهم فيها،[4] وكان هدف الدولة من هذا هو الحصول على الأموال لإقـــــــامة المشـــــــاريع العامة، واستصلاح الأراضي الغير المستغلة بعد. شيئا فشيء أخذت الأرضي تنتقل تدريجيا إلى أيدي الملاك الكبار، وهكذا تحولت بلاد المغرب أحسن مثـــــال يقدم عن سيطرة واحتكار الأرض من جهـــــة وعن التنظيم الزراعي الذي أحدث لتسيـــــيرها من جهة أخرى، وقد نقلت لنا النصوص التاريخـــية والشواهد الأثرية أمثلة عديدة على هذا النوع من الملكيات، فبشهادة فرونتين(Frontin) كانت مساحة البعض منها أكبر بكثير من مساحة المدن.[5] ومن هذه الضياع الواسعة من كانت تابعة للأرستقراطيـــين السيناتورين، وفي هذا الصدد ذكر بلين الكبير أن نصف ولاية البروقنصلية في القرن الأول بعد الميلاد كانت بيد ستة سيناتورين استنزفوا خيراتها إلى أن تخلـــص منهم الإمبراطور

[1] يوجيرا Iugerum هو مقياس روماني لقياس الأراضي المتساوية تعادل 25 أر أي ربع هكتار. أنظر: محمد البشير شنيتي، (التغيرات الاقتصادية)، المرجع السابق، ص123.

[2] M. Rostovtseff, the Economic History of Roman Empire, Oxford at the Clarendon Press, 1926, PP 277-278.

[3] دونالدر ددلي، حضارة روما، تر. فاروق فريد، جميل يواقيم الذهبي، دار النهضة مصر للطبع والنشر، مصر، 1964، ص 116.

[4] G. Ch. Picard, OP. Cit. PP 59-60.

[5] Jerzy Klendo, «Le colonat en Afrique sous le haut empire», 2eme Ed, Annale littéraire de l’université de Besançon, Paris, 1991, PP 23-24.

نيرون (Néron) واستـــــحوذ على اغلبها وألحقها بأملاكه.[1] ومن هذا النوع أيضا من كانت بحوزة الأباطرة وأعداد من أفـــراد أسرهم، وأخرى تابعة لأشراف مدينة روما والنازحين من المدن الإيطالية والأوروبية،[2] منهم جوليوس مارتيانوس (Julius Martialianus) المنـــدوب المـــفوض في عهد ألكسندر سيفيروس (Alexandre Sévère) الذي كان له أملاك هامة جدا وواسعة في ضواحي لمباز وخنشلة، وعائلة لولي(Lollii) التي كان لها أراضي في تدسيس(Tadsis) وعائلة أري أنطونيني (Arri Antonini) التي كان بحوزتها أراضي في ميلة (Méleve)،[3]ومن الأراضي أيضا من كانت تابعة لأشخاص أغنياء مرومنين،[4] اغتنموا فرصة الحصول على ضياع شاسعة بعد سوء الأوضاع خلال النصف الثاني من القرن الثاني.[5]

وإلى جانب الملكيات الكبرى هناك ملكيات متوسطة كانت تسير من قبل السادة أو من طرف وكلاءهم،[6] وملكيات صغيرة كثيرة الانتشار منها التي قدمت للمواطـــنين الرومان أو التي حاز عليها الجنود المنتشرة كثيرا في نوميديا وموريطانيا مقارنة بإفريقيا البروقنصلية بسبب تركز الحاميات العسكرية فيهما، إذ ذكر عدد كبير منها في سطيف، الجميلة وتيمقاد،[7] سواء التي قدمت لهم في عهد ماريوس أو تلك العطاءات الفردية التي قدمها لهم قيصر أو أغسطس.[8]

2-تسخير العبيد في خدمة الأرض لتوفير الغذاء

للاستغلال الأمثل لهذه الأراضي الشاسعة استدعى الأمر حشد الآلاف من العبيد للعمل فيها، إذ أصبحت تستغل 4 أو 5 مرات ما نستعمل اليوم من يد عاملة لإنتـــاج نفس المحصول،[9] وما ينبغي الإشارة إليه هو أن المعلومات المتعلقة بهؤلاء

[1] G. Ch. Picard, OP.Cit.P60.
[2] Jerzy Kolendo, OP. Cit. P12.
[3] G. Boissier, L’Afrique Romaine, promenades Archéologique en Algérie et en Tunisie, 3 Ed, Hachette et Cie, paris, 1907, P 153
[4] Jerzy Kolendo, OP. Cit. P 24.
[5]G. Ch. Picard, OP. Cit., P 106
[6] S. Gsell, « Esclaves ruraux dans l’Afrique romaine », mélange Gustave Glotz, Paris, 1932, P 405.
[7] E. Albertini, OP. Cit. P 56.
[8] M . Rostovtzeff, OP. Cit. PP 279-281.
[9] E. Ciccotti, Le doclin de l’esclavage antique, traduit par Platon, Librairie Marcel Rivière, Paris 1910, P245.

متواضعة وغير دقيقة، وأعدادهم غير معروفة تماما،[1] فعلـــــــى ما يبدو أن النصوص التاريخية لم تعط أهمية لذكر أعدادهم، الا أن هذا لا يمنع وجود بعض الإشارات التي توحي لنا بكثرتهم، وهذا ما نستشفه من خلال ما ذكـــــره بيترون (Petron) في حديثه عن احد أبطال رواية ساتريكوم الذي اختلس الأموال ثم غادر روما مسقط رأسه بعد فقدانه ابنه وأصبح من اكبر أغنياء إفريـــــقيا، فكانت ثروته ما بين الأرض والأموال تساوي 300 مليون سيسترس(sesterce) وعبيده عددهم كبير موزعين في حقول نوميديا،[2] كما ذكرت لنا أن القديسة ميلانيا كانت تملك في ممتلكاتها في إفريقيا أعداد هائلة أقدمت على عتق8000 عبد دفعة واحدة،[3] أما السيدة ايميليا بوندونتيلا زوجة أبوليوس كانت تملك بدورها 400 عبد على أراضيها.[4] وقد استدعى نظام الأرض تقسيم العبيد إلى فرق توضع تحت مراقبة عبيد مثلهم أو من العتقاء، ويشرف على المجموع رئيس العمل الذي لا تختلف ووضعيته عن هؤلاء المراقبين كذلك،[5] وللمراقبة المستمرة للأعمال الفلاحية وضع منصب الوكيل بينما المالك كان يكتفي بالإقامة في الفصول الجميلة للتنزه ومراقبة جمع الغلال فقط،[6] فقد انتشر هؤلاء الوكلاء في الأملاك العامة والخاصة على حد سواء، فحسب ستيفان غزيل، هذا الوكيل أي "Vilicus" "هو المدير التقني ويكلف أحيانا بإمضاء التقارير المقدمة للسيد مباشرة فلا يوجد بينه وبين هذا الأخير أي وساطة، إلا أن كلمة "Vilicus" اختفت من اللغة اللاتينية فـــي العهد الإمبراطوري وبدلها شاع استخدام كلمة"Actor"إلى جانب كلمة"Procuratore " فأصبحت الكلمة الأولي تستعمل للدلالة على أن الوكيل عبد، بينما الثانية على انه حر،[7] ولا يستبعد أن يكون الوكيل مساعدا من قبل هيكل إداري مكون من العبيد أو حتى من الأحرار وهذا ما يفهم من بعض النصوص، بداية بالوكيل المركزي ثم المسيرون في

[1] J. M. Lassere, Ubique populus, Ed national de la recherche scientifique, Paris, 1977, P 427.
[2] Jerzy Kolendo, OP. Cit. P 7.
[3] A- G. Hamman, La vie quotidienne en Afrique du nord au de st Augustin, nouvelle Ed Hachette, 1985, P133
[4] G. Ch. Picard, OP. Cit. P148.
[5] S. Gsell, OP.Cit.P406.
[6] J. Toutain, OP. Cit. P357.
[7] S. Gsell, (Esclaves), OP. Cit. PP 408-409

الضياع والمشرفون على العمل في الحقول،[1] فمن الإشارات الواردة في النصوص ما يوحى بذلك، فعلمنا منها أن أملاك الســـــيدة اميليا بوندونتيلا المراقبة من قبل زوجها كانت عن طريق الاطلاع على نتائج الإحصاء التي يقوم بها الخاضعين لهما.[2]

أما عن سبب استحسان الرومان استخدام العبيد في العمل على المرتزقة هو الحصول على إنتاج أحسن من جهة ومن جهة أخرى كان العبيد أكثر انضباط من المرتزقة الذين عرفوا كثيرا بالتمرد والعصيان،[3] بينما العبيد ملزمون بالعمل الطاعة فكانوا يعملون وهم مقيدين بأغلال خشية أن يفروا[4]، أو مكبلون بالسلاسل وهي نفس طريقة الاستغلال التي عرفتها ضياع ايطاليا وصقلية،[5] وقد استمرت هذه الطريقة في الاستغلال إلى غاية عهد الإمبراطورية السفلى.[6]

ومما لا شك فيه هو أن عدد العبيد المستخدمين في الملكيات الصغرى والمتوسطة اقل شأنا من الملكيات الكبرى، حيث كانت تترك أحيانا للوكيل وزوجته لتولي الإشراف على اليد العاملة المكونة من 25 إلى 50عبدا بينما يكتفي المالك بالقيام بجولات تفتيشية للتحقق من انه غير مخدوع،[7] والاقل شأنا كانت تستغل من قبل أصحابها بمساعدة أفراد العائلة والعبيد الذين كان عددهم قليل؛ عبد أو اثنان على الأكثر.[8] وهكذا سهرت روما على الاستغلال الأمثل لهذه الطاقات، ولعل أحسن دليل هو تحول إفريقيا إلى خزان لتمويلها بمختلف المـــــواد الغذائية وكان على رأس هذه المواد الحبوب؛ فلقد بلغ إنتاج القمح في إفريقيا الجديدة 840000 قنطارا (Quintaux) في عهد قيصر خلال أحسن السنوات وأسوئها، أما في عهد نيرون أعطت الولايات الطرابلسية ونوميديا عشرات المرات أكثر من العدد الأول،[9] وشيئا فشيء تحولت الولايات الافريقية الى مول رئيسي لها حيث ارتفع القمح المشحون إلى ثلثين (⅔) من حجم احتياجات الدولة أما الباقي فقد كانت تجلبه

[1] محمد البشير شنيتي، (التغيرات الاقتصادية)، المرجع السابق، ص 322-323.
[2] S. Gsell, OP. Cit., 405.
[3] G. Ch. Picard, OP.Cit.P60.
[4] محمد البشير شنيتي، (التغيرات الاقتصادية)، المرجع السابق، ص249
[5] S. Gsell, OP.Cit.P406.
[6] Ibid, P407.
[7] دونالدر ددلي، المرجع السابق، ص80.
[8] S. Gsell, OP. Cit. P401
[9] G. Ch. Picard, OP. Cit. PP69-70.

من مصر أي الثلث (⅓)،[1] وأصبحت السهول الواسعة من منـــــطقة شمال وشمال الغرب ولاية إفريقيا البروقنصلية ومناطق هامة من نوميديا الى مزارع متخصصة في إنتاج القمح وكانت أكثر وفرة من سهول النيل،[2] وهي المناطق التي ذكرت من قبل المصادر التاريخية على أنها آهلة بالعبيد.

وعن طبيعة عمل هؤلاء فقد حفظت لنا المخلفات الأثرية وعلى رأسها لوحات الفسيفساء صورا واضحة عن مختلف انشغالاتهم حسب المواسم بداية بموسم الحرث والبذر، فلوحة الأعمال الفلاحية لشرشال، (أنظر الصورة 1) تصور شخص يبذر الزرع فيتناثر على الأرض كنزول الأمطار، يأخذه من قفة كبيرة مربوطة على عنقه بحزام ويتبعه شخص آخر يدفع بالمحراث لقلب الأرض وتغطية الحب،[3] ولأهمية هذه المرحلة حرصوا كثيرا على انتقاء الحارث، فكانوا يستحسنون اختيار الأكبر سنا،[4] لأن قلب الأرض يستوجب الخبرة الكافية.

وبعد نضج المحصول يتـــــوزع هؤلاء في أنحاء الملكيات تحت أشعة الشمس التي تلفح أجسامهم لجني الغلال التي تحتاج بدون شك إلى جهد كبير لأن الوسائل المستعملة كانت جد بدائية وسيـــئة للغاية،[5] لتبدأ عملية الدرس التي صورتها لوحة فسيفساء زليت (أنظرالصورة2) ومن خلالها نلاحظ العملية تقام على مرأى صاحبة الضيعة وهي جالسة على مقعد تحت الظل، ويظهر لنا مراقب مشرف على الاعمال، وعامل يقود ثور لدرس القمح وآخران يدوران حصانين باتجاه عكسي لاتجاه الثور في الوقت الذي يرفع فيه العامل الخامس السنابل بالمسلفة، [6] وبعد الإنهاء من الدرس يجمع الحب في أكياس لنقلها إلي المخازن أو المطاحن منتشرة في الضياع عن طريق العربات أو على ظهورهم.

---

[1] محمد البشير شنيتي، (التغيرات الاقتصادية)، المرجع السابق، ص86.
يقدر الثلثين بما يزيد عن 2 مليون وربع مئة ألف قنطار وهو ما يعادل 40000 طن، بينما يرى البعض الأخر أن الإنتاج بلغ 160 مليون مد روماني أي ما يعادل أو يزيد عن 1200000 طن.

[2] E. Albertini, OP.Cit.P295

[3] Jean Berard, «Mosaïques inédites de Cherchel », Extrait des Mélanges d'Archéologie et d'Histoire, ancienne librairie Paris, 1935, -119.

[4] Hinri Wallo, L'Histoire de l'esclavage dans l'antiquité, Robert Laffonit, Paris, 1988, P409.

[5] E. Ciccotti, OP.Cit.P245

[6] Ibid, P247.

وبنفس الاهتمام حظيت الأشجار المثمرة وسخر فيها أعداد هامة من هذه الطـــاقات، حيث أصبح إنتاج الكروم والزيتون ينافسان إنتاج القمح ابتداء من القرن الثاني للميلاد، بعد توسيع غرس الأشجار في المناطق القليلة المطر التي تم استصلاحها.[1] فبخصوص الكروم يوضح لنا السجل الثالث من لوحة الأعمال الفلاحية لشرشال (أنظرالصورة1) شخصان ينحنيان لقلب الأرض بمعولين ذو سنين، أحدهما نراه من الجانب أما الثاني فقد أدار رأسه قليلا بينما الشخص الثالث منهمك في العمل، [2] فعلى ما يبدو أن الثلاثة بصدد تحرير أقدام الكرمة من أكمة التراب التي تغطيها التي وضعت لحمايتها خلال الفصل الحار ولحفظها من الجفاف، فعن هذه العملية قال كولوميل: «يجب خلع الكرمة بعد الأمطار الخفيفة لشهر أكتوبر–15 أكتوبر–وقبل أن يبدأ البرد فهي عملية لحماية الجذور الرقيقة التي برزت في الصيف، ولربط الأغصان إلى أعمدة... لتهوية الكرمة».[3] أما في السجل الرابع من نفس الصورة نرى في وسط المشهد وفي الأمام شخص بيده فأس وهو ينحني تحت نظرات صارمة لمراقب واقف على اليسار متكئ على جذع الكرمة وفي يده عصى، ومن المحتمل وجود شخص آخر متجه اتجاها عكسيا يقوم بدوره،[4] بتنقية الأرض من الأعشاب الضارة، وتكون هذه العملية في حدود شهر فيفري حسب الخبراء وفي شهر أفريل وجويلية.[5]

أما بخصوص جني الغلة توضح لنا نفس الفسيفساء في سجل اندثرت منه أجزاء كثيرة مشهد لقطف العنب، فنرى سلما بلون خشبي منصوب على الأرض ومسند على الكرمة يصعد عليه قاطف العنب، وفي خلفه على اليسار سلة عنب يمسكها بيده اليميني وباليد الأخرى يرتفع على السلم، أما في الأرض نرى سلة كبيرة مجدولة مملوءة حتى الحافة بالعناقيد الكبيرة من العنب، [6] وهو ما توحي لنا اليه كذلك لوحة أخرى في متحف شرشال الموجودة في حالة رديئة، التي تبين لنا مشهد لثلاثة رجال يقطفون العنب ويضعونه داخل القفف، أما الرابع يقوم بجمعه

[1] Louis Leschi, Etudes d’Epigraphie, d’Archéologie et d’Histoire Africaine, Paris, 1957, P80.
[2] Jean Berard,OP.Cit.PP119-120
[3] Louis Leschi, OP. Cit. P80.
[4] Jean Berard, OP. Cit. P120
[5] Louis Leschi, OP. Cit. P81.
[6] Jean Berard, OP. Cit. PP121-122.

في سلة كبيرة في الأسفل،[1] وبعد جمع الغلة تبدأ عملية صناعة الخمر والتي تبينها لنا لوحة فسيفساء أخرى في متحف شرشال لثلاث رجال يعصرون العنب على وقع أقدامهم الحافية داخل دن (بتية) من الحجر، [2] يمسكون بأيديهم ليحافظوا على التوازن ويرقصون بإيقاع الموسيقى، بينما يقوم الرابع بإفراغ السلال داخل هذا الدن،[3] ليخرج العصير داخل جرتان من الطين المشوي، وبعد أن يصبح الخمر جاهزا يسكب في أوعية صغيرة يتم وضع طابع عليها للدلالة على مدة صلاحيته ثم ينقل إلي القبو لتخزينه،[4] وبخصوص هؤلاء العمال يتم اختيارهم بعناية من الأصلاب أيضا.[5]

أما غرس أشجار الزيتون حصل على نصيب وافر من العناية ولسنا بحاجة إلى البحث عن الأدلة مادية لتوضيح كيفية الاعتناء بهذا المنتوج، فالشجرة في حد ذاتها تحتاج إلى التهوية بحرثها، تقليمها وجمع غلتها، فالسجل الأول لفسيفساء الأعمال الفلاحية لشرشال(أنظرالصورة1) يبين مشهد الحرث حول شجرة الزيتون بواسطة محراث يجره ثوران يدفعه حارث بيده سوط ويشد بقوة المقبض، بينما توضح لنا فسيفساء أوتـــيكا(أنظرالصورة3) عبد أمام شجرة يجني حبات الزيتون بكل عناية بنزعها بيده لا بطريقة النفض؛ إذ يمسك بيده اليسرى غصن الزيتون وباليمنى ينزع الحبات، يبدو أنه يستعمل جهازا قد يكون قرن تيس، الذي استعمل في عصرنا للجني حرصا على عدم اصابة الحبات،[6] ولم تكن هذه العملية تستدعي عبيد أكفاء على الأقل الذين يجمعون الغلة، إذ نرى في ضيعة السيد جوليوس أطفال موظفون في هذا العمل (أنظرالصورة4).

وبعد جمع الغلة في السلال يشحن في عربات لينقل المحصول بعد ذلك إلى معصرة أو مجمع للزيتون؛ حيث عثر على فسيفساء في مقبرة توضح لنا سيارة ذات عجلتين يجرها بغل محملة بالزيتون وأربعة أشخاص يفرغون الحمولة ويبدوا أنهم عبيد،[7] فكانت عملية العصر تتم على مستوى الملكيات، كما كان لكل عائلة

---

[1] S. Gsell, Cherchel, Imprimerie officielle, Alger, SD, P58.
[2] Louis Leschi, OP. Cit .P81.
[3] S. Gsell, (Cherchel), OP. Cit. P58.
[4] Louis Leschi, OP. Cit. PP 81-82.
[5] Hinri Wallon, OP. Cit. P409.
[6] Thérèse Précheur Canonge, La vie rurale en Afrique romaine d’après les mosaïque, presses universitaires, France, SD, P36.
[7] Ibid, P105.

معصرة على الأقل،[1] وكانت كثيرة العدد ولعل أكثرها شهرة الموجودة بالقرب من سطيف البالغ عددها 21 معصرة التي كانت تشتغل في نفس الوقت،[2]ويمكن افتراض تسييرها من قبل العبيد التابعين الملكيات التي أقيمت عليها، ولم يقتصر نشاط هؤلاء على انتاج هذه المنتوجات فقط بل شمل مختلف الأشجار المثمرة الأخرى كالتين، الجوز، اللوز وزراعة الخضر والأعلاف وتربية الحيوانات، فبخصوص هذه الأخيرة هناك عدة وثائق تبين ذلك[3] ومن هذه الحيوانات الماشية، الخنازير، البغال، الحمير، الأحصنة بالإضافة إلى تربية النحل ومختلف الدواجن وحتى الفيلة والجمال[4] ويختار لهذا العمل العبيد الأشد قوة ومقاومة للدفاع عن القطيع من الحيوانات المفترسة وقطاع الطرق.[5]

وقد بذلت هذه الفئة مجهودات جبارة، وتحملت قساوة الطبيعة والسادة الملاك من أجل توفير المواد الغذائية خاصة والزراعية عامة، غير أن تراجع الاعتماد على العبيد دون الاستغناء عنهم بدأ في عهد الإمبراطورية العليا ليصبح أكثر وضوحا في عهد الإمبراطورية السفلي، وربما يرجع السبب إلى توقف تدفق العبيد إلى الأسواق التي كانت تمولها الحروب في العهد الجمهوري، أو لارتباط رفع الإنتاج بتقديم الحوافز لذا توجه الرومان إلى استغلال الفلاحين الصغار، حيث كان عمل هؤلاء يدر بأرباح أكثر من العبيد الذين ارتفعت تكاليف شرائهم،[6] لذا سقط الفلاحون الصغار والفقراء في شكل جديد من العبودية تحت غطاء القنية وذلك لتوسيع استغلال الأراضي الغير المستغلة لتلبية حاجياتها المتزايدة.

3-أقنان الأرض وإجراءات توسيع المساحة المحصولية

القنية تعبر عن وضعية الأشخاص الأحرار المرتبـــطين بالأرض، [7] فقد دعي هؤلاء أيضا بأنصاف الأحرار، أرقاء الأرض،[1] أما بول لاكومب فقد استعمل تسمية تابع الأرض،[2] وقد عرفوا كذلك بالمشبهين بالرقيق.

---

[1] Thérèse Précheur Canonge, OP. Cit. P52.
[2] G. Ch. Picard, OP. Cit. P105.
[3] S. Gsell, (Esclaves), OP. Cit. P406.
[4] J. Toutain, L'économie antique, La renaissance du livre, Paris, 1927, P336.
[5] W .Warde Fowler, M.A, La vie sociale à Rome au temps de Cicéron, Lausann, Paris,1917, P187.
[6] Jerzy Kolendo, OP. Cit. PP41-42.
[7] S. Gsell, (Esclaves), OP. Cit. P403.

وأيا كانت تسميتهم فهم الأفراد الذين يتمتعون بوضع قانوني وسط بين حالة الحرية والعبودية،[3] وبمعني آخر القن إنسان حر حريته محدودة، ولم يكن يخضع للعتق بل يبقي قنا إلى الأبد.[4]

وقد ارتبط هؤلاء بالممتلكات الصغيرة المقامة داخل الملكيات الصغيرة والحصص الكبيرة الموزعة داخل الملكيات الكبيرة،[5] التي لا يملكونها في حقيقة الأمر بل يتعهدون بزراعتها مقابل الانتفاع منها، فهذا ما يميزه عن العبد؛ إذ يحتفظ لنفسه بثلثين من الثمار،[6] في حين لا يستفيد العبد شيء من جهده. [7]

كما يعترف القانون لهم بحق الزواج، وأن يكونوا دائنين أو مدينـــــين وأن يملكوا الأموال المنقولة والغير المـــنقولة،[8] والتمتع بحق الإرث،[9] بينما لا يعتبر العبيد أشخاصا من وجهة نظر القانون الروماني فلا تجب لهم أوعليهم الحقوقServile Caput Nallum Jus Habet، بل هو عنصر في ذمة السيد، يصنف في عداد أشياءه النفسيةRes Mancipi. [10]

ومقابل كل هذا، يفقد القن حق ترك الأرض التي يقيم فيها إذ يحق للسيد رفع دعوى استحقاق عينية لاسترجاعه[11] وكثيرا ما يكره على ذلك لأنه ملحق بها هو وأولاده إلى الأبد، وإن انتقلت ملكية الأرض إلى مالك جديد ينتقل معها، وبذلك يكون القن عبدا للأرض (Servus Aerrae).[12]

وليس هذا فحسب بل سمحت بعض الإجراءات القانونية للسيد كإمكانية استخدام شرطة خاصة لردع هؤلاء، إقامة السجون للزج بهم فيها وحتى تعذيب العصاة، فهذه السلطة تشبه إلى حد بعيد التي كانت بيد أسياد العبيد،[13] ويتبين هذا من خلال

---

[1] شفيق الجراح، دراسة في تطور الحقوق الرومانية ومؤسساتها، المطبعة الجديدة، دمشق، 1977-1978، ص 191.

[2] P. Collinet, «Le colonat dans l'empire romain», Extrais du recueil de la société Jean Bodin, Imprimerie des travaux publique, Bruxelles, 1937, P05.

[3] صبيح مسكوني، القانون الروماني، ط1، مطبعة شفيق، بغداد، 1968، ص 79.

[4] شفيق الجراح، المرجع السابق، ص192.

[5] P. Collinet, OP. Cit. P6.

[6] G. Ch. Picard, OP. Cit. P62.

[7] P. Collinet, OP. Cit. P6.

[8] شفيق الجراح، المرجع السابق، ص 191.

[9] صبيح مسكوني، المرجع السابق، ص 80.

[10] صوفي حسن أبو طالب، الوجيز في القانون الروماني، دار النهضة العربية، بيروت، 1965، ص215.

[11] شفيق الجراح، المرجع السابق، ص 191.

[12] صبيح مسكوني، المرجع السابق، ص 80.

[13] محمد البشير شنيتي، (التغيرات الاقتصادية)، المرجع السابق، ص252.

هذه الكلمات التي خاطب بها الفلاحون الإمبراطور قائلين: «ارحمنا، ما نحن إلا فلاحين، أبناء أرضك الذين ولدوا وترعرعوا فيها، فلا تعاملنا بالعنف عن طريق عمال مزرعتك».[1]

وهذا التحول سببه الرئيسي ارتفاع مصاريف شراء العبيد[2] كما سبق الذكر ولأن عمل الأقنان يدر لهم بأرباح طائلة أكثر من عمل العبيد، بالإضافة إلى كونها وسيلة جديدة لاستغلال الأراضي المحتلة حديثا،[3] وقد أدت الإصلاحات الاقتصادية في عهد الإمبراطورية السفلى على رأسها تعديل نظام جباية الضرائب الى سوء أوضاع الفلاحين مما جعلهم يسقطون في فخ القنية.[4]

ويبدوا أن بذورها تعود إلى أواخر عهد تراجان وبداية عهد أدريان، حيث تم العثور على نقيشة هنشير متش (Henchire Mettich)، التي ترجع إلى نهاية حكم الأول؛ أي إلى ما بين 115–117م والتي قدمت وضعية المزارعيـــــن الذين يتحصلون على الثمار كمستأجرين، وكانت وضعيتهم تشبه حالة الأقنان الذين يدفعون الإيجار نقدا، بالرغم من أنها أصرت على حقوق الأقنان مع ذكرها لواجباتهم، تحسين وضعيتهم بجعلهم ملاك صغار.[5]

وبتولي أدريان الحكم وسع قانون ماكيانا(Lex Maciana) ، ومن الاحتمال أن يكون منشور بيرتيناكس (Pertinax) الذي بموجبه تحصل الأقنان على حق الإقامة في الأراضي الشاغرة، سواء التي انتزعت من أصحابها لعدم انتظامهم، أراضي الأدغال والمستنقعات السهوب منها المتروكة بدون فائدة أو أراضي القمح المنهكة بسبب الإنتاج المكثف، فقد أعطى لهم حق استثمارها والانـــــــــتفاع منها وكذلك إعفائهم من الإتاوات لمدة سنوات مع اختلافها باختلاف الغلة.[6]

---

[1] G. Boissier, OP. Cit. PP. 169-170.

[2] Jerzy Kolendo, OP .Cit. PP41-42.

[3] صبيح مسكوني، المرجع السابق، ص 80.

[4] محمد البشير شنيتي، (التغيرات الاقتصادية)، المرجع السابق، ص251.

[5] M. E. Cuq, Le colonat partiaire dans l’Afrique Romaine d’après l’inscription d’Henchir Mettich, Extrait des mémoires présentes Par divers savants, Imprimerie national, France, 1947, PP 3-5

نقيشة هنشير متش هي من النقوش الأثـــرية الهامة التي عثر عليها في تونس، وذلك سنة 1896 من قبل الملازم الأول بولان Poullain ليتم نقلها إلى متحف باردو بتونـس، وهو قانون الملكية هي فيلا ماغنا فاريانا (Villa Magna Variani). أنظر نفس المرجع، ص 3.

[6] G. Ch. Picard, OP. Cit. PP64-65.

لتثبت لنا أدلة أخرى عن وجود القنية، ومنها مجموعة من النقوش أولها إهداء من قبل مجموعة من الأقنان يعود إلى عام 166م في المنطقة الحدودية للممتلكات الرومانية في ميناي Menae) ضواحي جبال الأوراس،[1] أما الثانية نقيشة سوق الخميس التي بينت لنا الحالة المزرية التي كان يعيشها هؤلاء في فترة حكم الإمبراطور كومودوس (Commode)،[2] أما النقيشة الثالثة التي عثر عليها في عين السلطان جنوب شط الهدنة والتي تعود إلى عهد السيفيريين، تبين أن للأقنان إمكانية الاستفادة فقط من كمية الماء الضرورية لسقي حقولهم أما الباقي لابد من دفع ضريبة الموافقة عليه.[3]

كما يظهر لنا أيضا من خلال الوثائق التشريعية، ولعل أهمها وثائق هنشير متش وعين الجمالة، أن الرومان ضبطوا الحصص القانونية التي يأخذها القن حسب طبيعة الأرض التي يقيم فيها ونوعية المنتوج الفلاحي، وبناء على المعطيات الواردة فيها لا سيما وثائق هنشير متش قسم ادوارد كوك (M. Edouard Cuq) الأقنان إلى أربعة أصناف وهي:[4]

أقنان سوبكيسيفا Subcesiva : وهم أقنان الأراضي الــمتروكة داخل الملكية فــي المساحات التي بقيت أملاك عامة للشعب الروماني والتي أباح القــانون استصلاحها أما عن الوضعية القانونية لهؤلاء الأشخاص المقيمين في هذا العقار، فهم ليسوا مالكين وليس لهم حق التملك، بل هم أقنان بسطاء. كما أنهم مجبرون على دفع قسط من الغلة، إضافة إلى الضريبة المقدمة من قبل باقي الاقنان ويترك لهم نصيب من الغلة لتشجيعهم على تخصيب الأرض. وحسب شولتن يلزم هؤلاء على الإعلان عن كمية الإنتاج كامــلة، ولا تخصم فقط الثمار المستهلكة بل حتى الثمار التي تترك للبذر، الموجهة للبيع ولمختلف الاستعمالات.

أقنان الأراضي المتروكة داخل الملكية: توضح هذه الأراضي المزروعة والمستصلحة من قبل الاقنان داخل الملكيات بـــ "Superficies " للدلالة على الأراضي المستأجرة لاستصلاحها، والحق الذي يتحصل عليه هؤلاء بـــ" Jus Colendi"؛ فالأقنان من هذا النوع يكسب حقوق على هذه الأراضي التي يستصلحها

1 Jerzy Kolendo, OP. Cit. PP64-65.
2 M .E .Cuq, OP. Cit. P05.
3 Jerzy Kolendo, OP. Cit. P33.
4 M .E .Cuq, OP.Cit.P08-44.

بفعل عمله، وهي الميزة التي تميزه عن باقي الأقنان، ويدفع الضريبة كمّا من الثمار التي يجنيها، بعد انقضاء مدة الإعفاء، فعلى الذي يغرس أرضا غير مزروعة وبصفة دائمة، يعفي من الإتاوات لمدة عشرة سنوات ثم يلزم بدفع الثلث من إنتاج الزيت، وكذلك الإعفاء المؤقت عن شجر التين والكروم المغروس حديثا لمدة خمس سنوات.

– أقنان الحقول المهملة منذ سنتين: فالأراضي التي استصلحت ثم أهملت منذ سنتين، ينتقل الحق إلى المسير، وبذلك تنتقل الأرض إلى غيره ليفلحها، ويعفي هذا الأخير من كل الالتزامات اتجاه المالك.

–أقنان الأراضي المزروعة: يعترف لهم بحق الحصول على الثمار، ولكنهم ملزمون بدفع حصة للمؤجر، ويدفع الإيجار مالا أو حصة من الغلة كضريبة محددة أو تقسيم الغلة معه، إضافة إلى تقديمهم خدمة مجانية في الحراسة، كما يتعين على المزارعين داخل العقار القيام بخدمة سنوية يومين في كل موسم الحرث والحصاد وتنقية الأرض، أما في الملكيات التابعة للإمبراطور فتعريفة جزئية من نقيشة قصر مزوار (Gasr Mezuar) تثبت أن أعمال السخرة تكون أربعة مرات في كل فترة لمختلف الأعمال الفلاحية، وفي المجموع يسدى القن خدمة لمدة 12 يوم.[1] ليتسع تطبيقها في بلاد المغرب وفي الولايات الرومانية الأخرى في القرن الرابع ومن الممكن أن يكون عهد قسطنطين الأكبر هو بداية هذه الظاهرة إذ صدرت قوانين كرست ارتباط الفلاح بالأرض ولعل أهمها قانون عام 332م،[2] ثم تتبعها عدة قوانين ربطت القن بالأرض إلى الأبد، سواء الصادرة في عهد فلانتنيان أو الذين أتوا من بعده خاصة تيودوســـــيوس، أركاديوس وهونوريوس.[3]

وفي الختام نستطيع القول ان العبيد والأقنان رغم اختلافهما في الوضعية القانونية إلا أنهم كانوا يشكلون عماد الزراعة ودعامة أساسية لتحقيق الرفاهية الاجتماعـــــية والرخاء الاقتصادي لروما وإمبراطورتيها، وقد تم توظيفهم وتوزيعهم كل حسب كفاءاته وقدراته العقلية والجسدية، وتم تسخيرهم لاستنزاف

---

[1] Jerzy Kolendo, OP.Cit.P59.

[2] محمد البشير شنيتي، (التغيرات الاقتصادية)، المرجع السابق، ص252.

[3] P. Collinet, OP. Cit. P7.

خيرات بلاد المغرب وباقي المستعمرات لتمويل روما بالمحاصيل المختلفة لاســـيما القمح، الزيتون والكروم لتحقيق اكتفائها من الغذاء.



الصورة 2: لوحة فسيـفساء زليـت

لصورة1: مشاهد من لوحة الأعمال الفلاحية شرشال

الصورة 4: منزل السيد جوليوس



الصورة 3: فسيفساء أوتيكا